معارك تربة

« غالية » تقود المعارك وتهزم الجيوش
يقول الترك ان الجن في خدمتها ..
.. ويشبهها الفرنسيون ببطلتهم جان دارك !

في شعبان من سنة ١٢٢٨ هـ . أمر طوسون قـائد جيوشه الني استولت على جدة ومكة والطائف « مصطفى بك » أن (يتابع حملاته ويطهر أعالي الحجاز من « جيوب » المقاومة النجدية) .

وكانت البلدة الأولى التي يجب عليه الإستيلاء عليها و « تطهيرها » .. هي : (تربة) !

كان مصطفى بك يظن أنه مدعو إلى نزهة ، لا إلى معركة ، فما قيمة هـذه البلدة الصغيرة متى قورنت بالمدن الكبيرة التي احتلها في سهولة ويسر ؟

أما المدافع والأسلحة والذخائر التي كان مصطفى بك يحملها معه ، فلم تكن معدة في حسابه لاقتحام تربة ، وإنما كان يريد – في غروره – أن يفتح بها بلدان عسير وتهامة واليمن !..

يقول ابن بشر إن مصطفى بك اصطحب معه الشريف « راجح » مع جموع من البوادي الذين نقضوا العهد وتابعوا الترك » ، ويكتفي من وصف المعارك التي وقعت في تربة بقوله إن العساكر المصرية (قصدوا بلد تربة ، وفيها مرابطة من أهل نجد وغيرهم ، فحاصروها ثلاثة أيام ، ثم أقبل مدد من أهل بيشة وغيرها

لأهل تربة ، فلما أقبل الترك كمنوا لهم وناوشوهم القتال ، فخرج كمين المسلمين على المحطة والخيام ، فانهزمت تلك العساكر والجموع ، فاستولى المسلمون على محطتهم وخيامهم ، وقتل منهم قتلى كثيرة ورجعوا مكسورين) .

ويبدو لنا أن هذا الوصف لمعركة تربة ، التي تناقل المؤلفون في بلاد الغرب أخبارها باسهاب واعجاب ، أقل مما يجب أن يقال في نضال تربة البطولي بل « الاسطوري »، وفيه كذلك غمط لحق زعيمة تربة : البطلة (غالية) ، التي لم يشر اليها ابن بشر اطلاقاً .

لذلك رجعنا إلى كتب غربية ومخطوطات عربيـة نادرة لاستقصاء أخبار تربة وبطلتها .

ونحب أن نقول باديء بدء إن سكان تربة هم من عشيرة (البقوم) ، وقـد دخلوا في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعاهدوا الإمام عبد العزيز على السمع والطاعة سنة ١٢١٢ هـ .

الزعيمة غالية :

يقول بركهارت ان عرب البقوم – سكان تربة – بدو وفلاحون ، وكان الشيخ « خرشان » رئيسهم « اسماً » ، ولكن زعيمتهم الحقيقية كانت « غالية » أرملة أحد كبار تربة ، وكانت واسعة الثراء ، توزع الأموال والطعام على فقراء العشيرة ، وكانت مائدتها منصوبة دائماً لكل الوهابيين ، وكان رؤساء الوهابية يعقدون مجالسهم في دارها .

كانت هذه المرأة الوهابية ، لعقلها وحكمتها وكمال معرفتها بشؤون العشائر ، مسموعة الكلمة ، مطلوبة مشورتها ، وكانت تحكم قبيلة البقوم وتوجهها ..

هذه البطلة العظيمة هي التي هجمت برجالها على عساكر مصطفى بك وجموعه ، لأنها لم تكتف بالدفاع عن بلدتها خلف الاسوار ، وإنما خرجت على رأس فريق من رجالها ، بعد أن خطبت فيهم واستثارت نخوتهم ، فقاتلت العساكر التركية المصرية قتالاً شديداً حتى انهزموا أمامها هزيمة منكرة ،وهربوا لا يلوي أحد على أحد ، تاركين خيامهم وأمتعتهم وبعض مدافعهم ..

كيف وقعت هذه الهزيمة :

كان جنود طوسون الذين عادوا سالمين من المعركة، لا يتحدثون إلا عن «غالية». هذه المرأة التي ظهرت أمامهم على حصانها في صورة «عملاق هائل» لا يستطيع أحد قهره ، فهو قوي بنفسه ، وقوي أيضاً بأعداد من الجن تحيط به وتسرع في تنفيذ أوامره ..

كان الجنود العائدون يقصون من أخبار « غالية » وعجائب أمورها شيئاً كثيراً ، وأقل ما كانوا يقولونه عنها انها ساحرة عظيمة ، وكانت الأساطير التي يتناقلونها تسهم في اضعاف « معنويات » الجنود وتثبيط عزائمهم .

غالية في الكتب الفرنسية :

لا تكاد تجد مؤرخاً افرنسياً يغفل اسم « غالية » في كلامه عن مصر وحملة محمد علي في جزيرة العرب ، وقد شبهها بعض المؤرخين الافرنسيين ببطلتهم (جان دارك) ، التي اشتهرت ببطولتها الخارقة في محاربة الانكليز الذين احتلوا قديماً جزءاً من فرنسا ، فلما وقعت جان دارك في أيديهم أحرقوها بالنار ، فكانت شهيدة الحرية ، واتخذها الوطنيون الافرنسيون بطلة قومية ، وجعلتها الكنيسة : « قديسة » .

ويقول المؤرخ الفرنسي « دريو » ان هزيمة المصريين في تربة أمام (غالية) كانت ضربة قاصمة لسمعة محمد علي وابنه طوسون ، لذلك أسرع محمد علي في السفر من مصر الى الحجاز لتدارك الأمر ..

ويقول المؤرخ « غوان » ان غالية كانت ، في نظر المصريين ، ساحرة تعطي الجنود الوهابيين « سراً » يحصنهم من الهزيمة ، فلا يستطيع أحد أن يغلبهم ، بينما يغلبون هم كل من يقاتلهم ..

وكان يسيطر على المصريين مزيج من الخوف والتطير لم تنفع في تبديده حيلة !

لقد أضعف انتصار غالية عزائم المصريين ، ولكنه قوى عزائم الوهابيين ، ففكروا في استرداد (المدينة) والبلدان التي فقدوها في معارك سابقة !.

غالية في الكتب العربية :

لا نجد في كتب التاريخ السعودي ذكراً لغالية ، استثني اشارة عابرة لأمين الريحاني في كتابه « نجد وملحقاته »، فقد قال، نقلاً عن المؤرخ الفرنسي مانجان: (ان الحملة الثانية على تربة عادت تحدث عن بدوية باسلة كانت في طليعة العربان تحرضهم على القتال .. وهي غالية امرأة أحد مشايخ سبيع) .

أما الجبرتي فقد ذكر في أخبار صفر سنة ١٢٢٩ عودة مصطفى بك إلى مصر ، بعد أن نقم عليه محمد علي ، لهزيمته في تربة (المتأمرة عليها امرأة حاربته وهزمته ..)

ثم ذكر في أخبار جمادى الاولى من تلك السنة هزيمة طوسون في تربة (التي بها المرأة ، التي يقال لها : « غالية ») .

وقال الرافعي في تاريخه ان طوسون أرسل أحد قواده مصطفى بك لمهاجمة تربة (فانقضَّ الوهابيون ، وكانوا بقيادة سيدة تسمى غالية ، أثارت فيهم الحمية والحماسة ، فأعملوا في الجيش المصري قتلاً إلى أن وقعت الهزيمة ، وارتد المصريون بغير نظام إلى الطائف) .

وقال الأب لويس شيخو ، في بحث نشره في مجلة المشرق عام ١٩٢٠ م . ان الوهابيين في تربة خرجوا لمحاربة المصريين (وكانت في مقدمتهم امرأة تدعى غالية ، زوجة شيخ قبيلة « صبيح » تهزج وتهوّس القوم ، فأبلوا البلاء الحسن وكسروا المصريين وضبطوا كل أثقالهم وأسلحتهم) .

وذكر محمد البسام في كتابه المخطوط ، المحفوظ في مكتبة المتحف البريطاني ما يأتي :

(البقوم .. الحاكمة عليهم امرأة اسمها « غاليـــة » ، ذات رأي وتدبير ، وحزم وشجاعة ، لم يدركها أشد الرجال .

وهذه المرأة المذكورة في القلعة المسماة « تربة » .

وأما بلدها فبلد واسعة ، أرزاقها تأتيها من الطائف) .

هزيمة تربة الثانية :

بعد هزيمة مصطفى بك في تربة ، التي قدّر عدد القتلى فيها من جنوده بما يقرب من ألف قتيل ، أمر محمد علي ابنه طوسون أن يستولي على تربة ، ليمحو عار الهزيمة التي ألحقتها بالجيش .. امرأة !

وفي عام (١٢٢٨) ، سار طوسون الى تربة على رأس جيش من ستة آلاف مقاتل ، وكان معه ستة مدافع ، وكان يرافقه عابدين بك ، الذي اشتهر باعتقاله للشريف غالب !

ويقول مانجان ان الشريف راجح سار أيضاً مع الحملة الطوسونية ، ولكنه اختار لها طريقاً طويلاً جداً استنفدت خلاله أكثر مؤنها وأصابها التعب والإنهاك ، وكان ذلك بسبب شدة حقده على محمد علي الذي نصّب الشريف يحيى والياً على مكة .. (وقد هرب الشريف راجح بعد ذلك وانضم الى الوهابيين).

ويقول بركهارت: (إن الجنود المصريين – الذين كانوا متعبين ويعتقدون فوق ذلك بسحر غالية ويخافونها خوفاً شديداً – قالوا لطوسون إن استمرارهم في القتال سوف يفنيهم ولا يبقي على أحد منهم ويكفي أن عدد قتلاهم في اليوم الأول بلغ سبعمائة قتيل.. فأفضل الرأي الانسحاب والعودة الى مكة والطائف، وانتظار أيام أحسن .

اضطر طوسون الى الرضوخ لهذا الرأي ، لأنه رأى بوادر العصيان والتمرد من جنوده ، وكتب الى أبيه رسالة يذكر فيها سبب إخفاقه ..

ثم انسحب بجيشه الى الطائف ، بعد أن أحرق خيامه .

ولكن الوهابيين استطاعوا انتزاع مدفعين من مدافعه) .

ويقول الجبرتي ان طوسون حاصر تربة ثمانية أيام فلم يقدر عليها فتراجع عنها منهزماً .

رسالة محمد علي الى الجيش :

ويقول مانجان ان محمد علي أرسل مفتشاً من قبله للتحقيق في أسباب هزيمة تربة .

وكتب محمد علي – بعد عودة المفتش – رسالة الى رؤساء الحملة الثانية على تربة ، قال فيها :

(.. أنا أعرف أن سبب الهزيمة لا يعود اليكم ، وإنما يعود الى العربان ، وقد عاقبتهم !

أنتم رجال شجعان ، وموقفكم في الساعات الحرجة يستحق الثناء والتقدير .

يجب ألا تيأسوا ، ففي الحرب نجاح وإخفاق !

إن فقدان المؤن هو وحده سبب رجوعكم الى الطائف !

وسوف يلقى المسبب لهذه الخيانة جزاءه الذي يستحقه !) .

حمل رسالة محمد علي رسول خاص ، وكانت ترافقه قافلة محملة بالأموال والملابس والخيام.. فأعطى طوسون الجنود ما شاء و « طيّب » خواطرهم وأثار حماستهم لحملة قادمة !.

معركة تربة في رواية « ابن بشر » :

ويقول ابن بشر : (إن محمد علي سيّر ابنه طوسون بالعساكر العظيمة والجموع الكثيرة إلى جهة الحجاز واليمن ، وكان أدنى ما يليهم تربة ، وكان قد حصنها سعود بالبناء ، وأعدّ فيها عدة للحصار ومرابطة ، واستنفر أهل الحجاز واليمن وأمرهم أن ينزلوا مرابطة حولها ، ثم أقبل طوسون ومن معه من العساكر والجموع ونازلوا أهل بلدة تربة وحاصروها نحو أربعة أيام ونصبوا على قصورها المدافع والقنابر ورموها رمياً كثيراً فلم يؤثر فيها شيئاً ، وأنزل الله الرعب فيه وعساكره ورحل منها بعد ما قُتل من قومه قتلى كثيرة ، ومع الترك في هذه الموقعة من البوادي بني سعد وهذيل وناصرة .) .